

الفصل الأول

القاهرة.. بنت الصحراء

القاهرة، أكبر المدن الصحراوية (٤١٤ كيلو مترا مربعا، ٣,٣٤٨,٠٠٠ نسمة حسب تعداد سنة ١٩٦٤ التقديرى) لها لون صحراوى، والذي شادها هو إيمان ربيب الصحراء، وأفضل لقاء لها هو من ناحية الصحراء عبر طريق للسيارات يبدأ من البحر الأبيض المتوسط ويمتد ١٣٠ ميلا وسط بيداء متموجة غير مقبقة إلى أن يتصاعد خلف الأهرامات ليهوى إلى واحة الوادى، فيتراقص على مساره من نفث عاصمة كبيرة أطياف ألوان ما بين الرمادى والبني، حتى الطائرات فأنها لا تتفادى رؤية الصراع بين الحياة والموت عند اقترابها

إلى ممر الهبوط فوق كثبان من الرمال الجرداء.

والقاهرة مشادة من بطن الصحراء التي تتشبث بحضنها، فالأهرامات العجائب التي أقامها خفرع وورثته قد تألفت من آلاف آلاف كتل من حجر رملي جرى نحتها أولاً من تلال المقطم ثم دفع بها إلى الغرب طوفاً على الماء عبر الوادى إذ النيل فى عز فيضانه مجتازة موقع المدينة اليوم، وشاع بعد ذلك استخدام هذه الكتل الميسرة من لحم الصحراء المتجمد فى عمارة الأمراء المسلمين للمساجد والقصور.

أما اليوم فقد رجع جانب كبير من المدينة إلى صحراء النسيان، فقاعة الذهب التى كان يطل منها الخليفة المعز على حفلات بلاطه من خلف ستارة نسجها ووشىها من خيوط الذهب قد اندثرت هى والحجرات الأربعة الآلاف التى كان يضمها قصره بما تحويه من رقيق جلب من اليونان والسودان الذى كانوا يحفون به ليكونوا تحت رهن إشارته، وكذلك لم يبق أثر لبهو الزبرجد فى الديوان الكبير، وتلال المقطم التى جاءت منها الأهرامات

والتي تلقى منها الشمس عند مطلع الفجر أول تحية لها
على أبى الهول فى الغرب لا تزال تتعلق بها مساجد خربة
كأنها تهويمات لم تتم من وحي أسطورة قوطية.

أن الصحراء تغزو المدينة سواء فى ذلك طرقاتها
الفسيحة أو الأزقة المتعرجة فى الأحياء القديمة، وتهب
رياح الخماسين من ليبيا فى شهر مايو تحمل معها تراباً
ناعماً يتسرب من خلال أحكم النوافذ فيضفى على
المدينة - زرعها وأبنيتها - كساء من مسحوق رمادى.
أن أهذاب المصريين الطويلة هى سلاح ضد التراب،
لا مجرد زينة..

ومباهج القاهرة - شأنها شأن مباهج الصحراء -
تزداد جلاء لأنها فوق لوحة متربة. عديدة محال بيع
عصير المانجو وقصب السكر لإرواء الحلق الجافة من
العطش الشديد. وفى أركان معتمة رثة الحظ تتألق زهور
بألوان متوهجة. وحينما تغيب الشمس أخيراً بعد نهار
قائظ من وراء فندق هيلتون تسرى من فوق أرض
الطرق رائحة فريدة هى خليط من أنفاس الفل

والياسمين وزخمة وحوش الفلا.

والصحراء كالبحر، هيهات أن يقال عنها خلاء
محصن، بل أنها ملتقى قوى عديدة، وكما ربط البحر
ما بين الجزر اليونانية في العهود الخوالى، فان الصحراء
ربطت بين البعيد والبعيد من أقطار الشرق الأوسط، وقد
وفد الزوار والسياح على مكان القاهرة منذ فجر التاريخ
فهى وأن اتخذت اسما عربيا فقد حظى موقعها باهتمام
كبير من قبل أن ينتشر العرب من جزيرتهم بزمان طويل
فعند هذا الموقع الذى يزداد فيه النيل رحابة ليضم بين
ذراعيه أرض الدلتا، وهى على شكل مروحة، أقام
الفراعنة عاصمتهم منف (وهذا الهرم المدرج فى سقارة،
وهو أقدم بناء من الحجر فى العالم كله. لا يزال يطل على
مقابر منف، تراه بالعين المجردة من أعلى العمارات فى
القاهرة) وقد أقام الفراعنة أهم مقابرهم فوق هضبة
الجيزة، لا تبعد عن قلب القاهرة - ميدان التحرير -
إلا مسافة ٤٠ دقيقة بالاتوبيس رقم ٨. ومدينة عين
شمس - هليوبوليس الآن يربطها بالقاهرة قطار
المترو - كانت لها سمعة عالمية فى العلوم، ولكهنتها فضل

على هيرودوث وأفلاطون. وقد أطلق اسم عين شمس على واحدة من جامعات مصر الأربعة.

وأشد زائري القاهرة تأثيراً عليها لم يأتوا ببضاعة التجارة، بل بأفكار دينية، فالقاهرة اليوم - شأنها في ذلك شأن مدن كثيرة - وليدة أحداث موجة من سلسلة أمواج المد البشري، تتناثر فيها شواهد عديدة على تعاقب الأديان. فقد أقام العبرانيون (الذين ذكرهم القرآن باسم بنى إسرائيل) في شرق الدلتا وقاموا بنصيبهم في صناعة الطوب، ثم استوطنت جاليات يهودية - قبل ميلاد المسيح بعدة قرون - على ضفاف النيل، وكان أكبر مراكزهم في الإسكندرية بالقرب من مصب فرع النيل الغربي، حيث شرح أفلوطين نظريته عن التوحيد بتعبيرات الفلسفة اليونانية، وقد تبنت الكنيسة نظريته عن «اللوجوس» أو «الكلمة» في شرح عقيدة التجسد الإلهي، ولكن العائلة المقدسة اختارت المدينة الرومانية بابلون في مصر - وهي مكان القاهرة اليوم - ملجأ لها عند خروجهم من فلسطين هرباً من طغيان هيرود. ولا يزال الرهبان الأقباط يقودون زوار كنيسة

أبو سرجة لمشاهدة قبو رطب حيث نام «اللوجوس»
وحراسه. بالقرب منها يوجد كنيس لليهود يحوى نسخة
ثمينة من التوراة.

ولكن لا الكنائس ولا الكنيسات تغلب على افق
القاهرة، فهذه المدينة ليست باليهودية ولا بالنصرانية.
إنها مدينة مسلمة نشأت بفضل دين محمد النبى العربى.
هى عند المسلمين لا تقل جلالاً عن مكة، التى تتجه إليها
قبلة الصلاة فى مساجد القاهرة، ولا عن المدينة مثنوى
الرسول. وإذا كان الأفق من حول القاهرة قد ارتسمت
عليه منذ سنة ١٩٥٢ ظلال ناطحات السحاب وصروح
أخرى هندسية، فإن العين لا تلاحظ على هذا الأفق إذا
ترامت نظرتها فوق الأسطح الغبراء إلا المآذن المشرببة
للسماء، يتردد منها صوت المؤذن للصلاة خمس مرات فى
اليوم.

وللقاهرة - لأنها مدينة صحراوية - ثروة نباتية
تنفرد بها: زهور لا تنمو فى الشمال إلا داخل بيوت من
الزجاج وأشجار تضى زينتها على ما حولها من قتامة،

أشجار الكافور التى تخشخش أوراقها الرقيقة، أشجار السنط التى لا ترهب الجفاف، أشجار الجميز، أشجار التين البنغالى التى تتهدل منها فروع متجهمة لتنبث منها جذور أشجار جديدة معتمدة، ثم النخلة التى جعل القرآن ولادة المسيح تحتها. وإذ كانت السماء لا تمطر إلا نادرا فان اللون الأخضر يشوبه على الدوام صفرة مغبرة..

ولكن دع عنك النبت والحجر، فإن الذى يجعل القاهرة فريدة بين المدن الصحراوية إنما هو هذا النهر الذى يهبها الحياة، فالمدن الأخرى التى تقوم فى الصحراء حيث الواحات إنما يغلبها العطش ويهددها، أما القاهرة فالصحراء عندها يشقها النيل - أطول أنهار العالم القديم - يحمل إليها العطايا من شاطئ الأطلسى عبر الغابات والأحراش والجبال والوهاد فى أفريقية الوسطى.